# البَرابِرة

قصة بقلم حيدر حيدر

مذ هبطت هذه المخلوقات الغريبة واستولت على المدينة ، تحولت أحلام الناس الى كوابيس ولم تعد الزهور تقوى على التفتح ونشر عبيرها . لقد صمتت الطيور وبدأ الفجر يتأخر في الشروق وأصبح عسيرا ان يتعرف الانسان على أخيه الانسان .

قال الرجل : أمس كنت تصيحين كمن يذبح أو يسقط في هاوية.
تابعت المرأة : ألم ترهم ؟ لم يكن ذلك حلما . كانت عيناي مفتوحتين جيدا . رأيتهم يقفون في النافذة . كانوا يرتدون ثيابا تشبه الاكفان . طوال الليل ظلوا يمارسون معي شتى انواع التعذيب .

وقال الرجل : رأيت نفسي في مكان بعيد مطوق بالاسلاك الشائكة . ساحة المكان ارض من الشوك والحجارة . لا بد انها ثكنة . كانت معي امرأة ومعها طفل . فجأة أحسست انني مطوق فقلت للمرأة ان تخرج . رفضت المرأة وصممت أن تبقى . قلت : ستصابين او تموتين . قالت : سأظل معك . انني أذكر لون فستانها الزهري البديع ولون شعرها الفاحم وعينيها . كانت على بعد أمتار قليلة مني وبدأت تقترب نحوي . ورأيتهم ينحدرون من تلة مجاورة مشرفة على الساحة. انني أعرفهم جيدا وأستطيع ان اسميهم واحدا واحدا . كانوا مدججين بالحقد وفي أيديهم قنابل . وبدأ انحدارهم نحو الباحة . صحت بالمرأة ان تأخذ طفلها وتمضي . غير ان القنابل بدأت تنفجر واندلعت النيران ورأيت وأنا في غمرة المعركة كيف كانت المرأة تزحف منكبة فوق طفلها والنيران مندلعة في فستانها الزهري وشعرها ، وأنا أقاتل وحيدا وليس باستطاعتي أن أساعدها . ثم رأيتها تطير فوق الساحة متوجة بالنار . كانوا يطاردونها وهم عراة وهي تصيح وتستنجد . ورحت أقذف بالقنابل نحوهم لكن القنابل لم تصب احدا . كانوا قد ابتعدوا وفي غمرة هذا الرعب استيقظت .

وتابعت المرأة : كنت أهيب بك أن تستيقظ لتراهم . لم يكن ذلك حلما البتة . أقسم انني كنت مستيقظة لكنني لم اكن استطيع الكلام الا بحشرجة متقطعة . كانوا هناك وكانت معهم العاب عجيبة . وحاولت ان افهمهم ان هذه غرفة نومنا ولا يصح من ضيوف طيبين ان يدخلوا غرفة النوم . ورأيتهم ينظرون الى بعضهم بعضا ثم يبتسمون بازدراء . وأطلقوا في البيت بعض الالعاب . كانت نوعا من الشهب المضيئة راح يتساقط منها عيون وأرجل ورؤوس واعضاء تناسلية ذكرية تقطر دما . ثم رأيت البيت يتسع ويمتد ، ورأيتهم يخرجون من الجدران والسقف والفراغ ، وشاهدت آلات التعذيب تتدلى من سقف البيت ومن الحيطان وقد علق فيها اطفال ونساء ورجال . ثم صار البيت ساحة كبيرة وامتلأت بالبشر . كان الناس بلا ملامح ، وبدا ان خوفا سريا رهيبا قد كبلهم . وسمعت همسة رجل يسأل آخر : لماذا نحن هنا ؟ ورد الاخر بتوجس : لاجراء التجارب ومشاهدتها .

وجيء برجل وامرأة وطفل مثلوا أمام محكمة . كان الغرباء يحيطون برجل طويل قاسي الملامح يوحي بالبلادة . وسأل الرجل القاسي المرأة : أهذا زوجك ؟ فأنكره . وسألها عن طفلها فأنكرته . ثم سأل الرجل عن زوجته وطفله فأنكرهما . وسأل الطفل عن أبيه وأمه فاعترف بأنهما أبواه . وصاحت المرأة : انه يكذب . ليس هذا أباه . أبوه قتل في السجن . وحدث هرج في الساحة ، وأمر الحاكم ان يؤتى بالرجل فأتوا به . وطلب من الغرباء ان يباشروا عملهم . كبلوه بالسلاسل وطرحوه في الساحة وبدأوا يصبون عليه سائلا لم يلبث ان أذابه . وقذفوا بالمرأة الى بعض الغرباء . عروها ومارسوا معها الجنس . اما الطفل الذي بكى فقد قدموا له بعض الالعاب هدية .

وقال الرجل محاولا اخفاء فزعه الداخلي : كنا في أرض غريبة مزروعة بشجر الزيتون والغار . كانت الارض حمراء اللون . سكون غريب يخيم على المكان. لا بد انه المكان الموعود الذي رغبنا ان نلتقي به . وكانت هناك هضبة خضراء شجرها غريب . وكنا نتجه عبر هذه الارض العجيبة باتجاه الهضبة . كانت بيننا مسافة . وسألتها : لماذا لا تقتربين مني ؟ وابتسمت ، وشعرت بأنها لا تستطيع . وقلت بأن زمن افتراقنا طال وقد آن ان نلتقي . وحاولت ان أشرح لها حزني ولهفتي لان أمسك بيدها وأن أحدق في وجهها وعينيها بعد هذا الغياب . وبدت لي عذبة كعهدي بها لكنها كانت متعبة ايضا . وظلت بعيدة . وحاولت ان احدثها عن الطيور الخضر التي كنت اراها في احلامي والتي كانت تهرب مني . وخيل الي انها اشارت الى اختفاء الطيور وموتها ، وكنا قد وصلنا الى مشارف الهضبة ، فاتجهت نحو اليمين وانا نحو اليسار . وفجأة رأينا ونحن نرتقي طريقا مظللة الرجال الغرباء يطاردون حمرا وحشية عبر السهول ، وأشارت رافعة اصبعها باتجاه المشهد الذي بدا تحت اصيل الشمس كلوحة بديعة نابضة بالالم . كانت الحمر الوحشية قد أنهكت وحوصرت في مضيق وبدأت

عمليات قتلها وسلخ جلودها . كانوا يضربونها بفؤوس حادة على جبهتها وكانت الرؤوس تنشق بسهولة . وصرخت بي : ليست هذه حمـــرا وحشية ، انظر الى دمها والى قلوبها . ورأيت الشفق مغطى بالـــدم والقلوب التي تقطر والقمصان الرقطـــاء . ورأيت الارض قد ازدادت احمرارا والشجر بدأ يفور في الارض . وقالت : لن تلتقي . وفلت : الى أين تذهبين ؟ وردت : سأضرب في تيه الارض . واختفت الهضبة ثم ظهر البحر . آه ! يا للون البحر كم كان مفزعا .

وتابعت المرأة : ولم يكن ذلك هو كل شيء . وقف الرجل الطويل البليد ذو الملامح القاسية وقال : لم يعد باستطاعة أحد ان ينحرك الا ونعرف لماذا . ولم يعد باستطاعة احد ان يتكلم الا ونعرف لماذا . ولم يعد باستطاعة احد ان يتزوج الا ونعرف متى ولماذا . أنتم الان فـــي مدينة العلم والايمـان بقوانين الدولة التي تعرف كـل شيء والتـــي تسهر على راحة المواطنين . انتهى عهد الفوضى وبدأ عهد التنظيـــم . لقد أحصينا عدد السكان وأحصينا عدد البيوت . كل بيت اصبح لـه اشارة حمراء او خضراء ، وكل مواطن صار له رقم مفرد أو مزدوج . الاشارات والارقام هي لغة العلم الحديث . اصبح بامكاننا معرفـــة كم حريرة يستهلك المواطن وما هي انواع الاطعمة التي عليه ان يتناولها، وما هو عدد ونوع الاطفال الذين سيولدون . كذلك صنعنا للمواطـــن قاموسا للكلمات . فالكلمات الزائدة عن الحد لا معنى لها وستـــؤدي بالضرورة الى الخوض في موضوعات تتعب المواطن وتضر بسلامة الدولة. المهم اننا لمصلحة الوطن والمواطن اصبح المواطن مقننا . لقد أخـــذت الدولة على عاتقها تربية المواطن تربية حديثة . يأكل ويشرب وينـــام ويتفوط ويضاجع بقوانين التقنين . طبعا هناك مواطنون جامحـــون يفكرون اكثر مما ينبغي ويتحدثون اكثر مما ينبغي وهؤلاء مواطنـــون فائضون عن الحاجة ويضرون بالمصلحة العامة . لذا كان لا بد مـــن التخلص منهم حفاظا على مصلحة الوطن والدولة . المواطن الذي تخلصنا منه قبل لحظات هو واحد من هذه النماذج الضارة . طبعا لدينـــا أساليب مختلفة للقضاء على امثال هذه الحشرات الفائضة .

وأوعز الحاكم الى الغرباء أن يعرضوا على الجمهور كيفية التخلص من الناس الذيـن أسماهم الجامحين .

ورأى الجمهور بيوتا فيها ناس تتحرك شفاههم بكلمات مبهمـة ، ثم رأى هؤلاء الناس يتوقفون عن الكلام بغتة ثم يتحشرجون ثم تسقط رؤوسهم فوق صدورهم ويصمتـــون الى الابد . وعرض الغرباء آلات خاصة وضعت خارج البيوت والغرف . كانت هناك انابيب تمتد الـى داخل البيوت من الجدران او السقوف وظيفتها امتصاص الاوكسجيـن من الداخل . كان الذين في الداخل يموتون اختناقا بعد ان يتـــلوث الهواء بغاز الفحم الخالي من الاوكسجين .

وعلق الحاكم : هؤلاء الجامحون كانوا يتحدثون بكلمات فائضة عن القاموس التقنيني . ومن المعلوم ان الذي يتحدث كثيرا يتعب كثيـرا ونحن حريصون على راحة المواطن والدولة . الدولة العصرية العلميـــة هي التي تفكر عن المواطن بالامور الجوهرية والحساسة . الراحـــة والسعادة والتنظيم هي مهمة دولتنا تجاه مواطنيها . بهذه الطريقـــة يكون المواطن الصالح . المواطن المؤمن بسلطة الدولة وقدرتها عـــلى التقنين لمواجهة اعدائها المتربصين بها .

عندما اقترب الرجل من المرأة ليبددا خوفهما ويحتميا منـه ، داهم الغرباء البيت بوجوههم القاسية الخالية من الرحمة . امسكوهما وخرجوا بهما مكبلين الى الساحة .

كان الناس هناك ورأوا الحاكم يفهقه . قال الحاكم : هـــذان نموذجان للجامحين . كانا يحلمان في الليل ويثرثران بأمور سريـــة لا تليق بالمواطن الشريف المقنن ولا بدولة العلم . لقد خرجوا بأحلامهم عن القاموس المحدد . آلاتنا ضبطت أحلامهما . رجالنا الشرفاء الاذكياء المسؤولون عن حماية الوطن وضعوا لكل مواطن آلات خاصة في مكـاتب العمل والسيارات والحدائق والشـــوارع والمقاهي والخمارات وتحت الاسرّة مهمتها أن تحصي وتسجل كل ما يحدث في هـــذه الاماكن . وكان هذان الجامحان يحلمان بطريقة غير شرعية . انهما يعرفان التنظيم الجديد للدولة وعافية الجموح ومع ذلك سمحا لاحلامهما أن تشتط . لقد كانا يعلمان ان آلاتنا تنقل بطريقة الكترونية كل حركة وكل همسة وكل مشروع تفكير يمكن أن تهجس به النفس . اجل النفس الامـــارة بالسوء التي ترغب الدولة في تنظيم جموحها واعادتها الى الصـــواب . من أجل هذا استحقا بجدارة هذا العقاب الجديد الذي ستشاهدونه.

استغرقت محاكمة الرجل والمرأة دقائق قليـــلة . ركب في رأس كل منهما كلابة الكترونية لها خاصة تعطيل مركز الذاكرة . وبعد ان سحبت الكلابتان من الرأسين سأل الحاكم الرجل : أتعرف هـــذه المرأة ؟ نظر الرجل الى امرأة غريبة تقف جواره ونفى برأسه . وسأل الحاكم المرأة : أتعرفين هذا الرجل ؟ رنت المرأة الى رجل غريب يقف بجوارها ثم نظرت الى الجماهير التي غلها الخوف وارتد بصرها نحو الحاكم . حدقت فيه طويلا ثم بصقت في وجهه وسقطت ميتة .

الجزائر — حيدر حيدر


من منشورات دار الآداب

# شخصيات من أدب المقاومة

## تأليف سامي خشبة

« ليست هذه محاولة في النقد الادبي التطبيقي ، وليست محاولة لدراسة شخصيات لابطال تاريخيين او مخلوقين على حساب الاعمال الادبية انها محاولة لاكتشاف ما يمكن ان يصنعه الادب بعقلية الشعب الذي يكتب عنه الادب ويكتب له . ان عقلية مصر وروحهـا في مواجهة كل محاولات غزوهـا وطمس معالمها القومية والانسانية هي ما يهمني في هذه الدراسات .. ومع هذا فان للبطولة ايضـا نصيبا من اهتمام هذه الدراسات ، ولكنهـا بطولة العقل ـ مهزوما او منتصرا ـ في مواجهة محاولات تجميده في اطار ثقافات الغزاة، او في توابيت ثقافته المحلية التي اجبرت على التوقف عن مواكبـة الحياة المتطورة .. ومن هنا ، فان كل ادب ننتجه يهدف الى تأكيد قيم الحرية العقلية والاجتماعية والسياسية والى اعادة الكشف عن حقيقتنا القومية من زاويتها الانسانية هو ادب للمقاومة »

من مقدمـة المؤلف

٢٥٠ ق.ل. — صدر حديثا